طريق الخلاص

ربمـــا نلـــت فـــي الأنـــام اشـــتهارا
وجـــذبت الأســـماع والأنظـــارا
إنمـــا ذو الخفـــاء يبقـــى طليقـــاً
والفيـــافي لا تأســـر الأحـــرارا
إن أحبـــوك طوقـــوك بســـجن
وإذا أبغضـــوك يـــورون نـــارا
وجـــلال الـــدين الكبيـــر[1] حبانـــا
قصـــة هـــذبت لنـــا الأفكـــارا
كـــان فـــي طيهـــا معـــانٍ حســـانٌ
خبَّـــأت فـــي برودهـــا الأســـرارا

كـــان فـــي الأمـــس تـــاجر
عنـــده عـــاش طـــائر
إن تغنـــى ســـبا الـــورى
أو تثنـــى فسَـــاحر
قفـــص ضـــم حســـنه
رصَّـــعته الجـــواهر
فهـــو مأســـوره كمـــا
أنـــه فيـــه آســـر
كـــان حـــراً فصـــاده
مـــن ربـــى الهنـــد مـــاهر
بالـــدنانير باعَـــه

[1] إشارة إلى أن أصل القصة موجود في المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي

حيـــــث مـــــا ثـــــم ناصِـــــر
قبلهـــــــا كـــــــان مطلقـــــــاً
وعليـــــــــــه البشـــــــــــائر
بـــــــين أغصـــــــان غابـــــــة
وريـــــــــــاض يســـــــــــافر
وصـــــــــــحابٍ وإخـــــــــــوةٍ
وحبيـــــــــــب يســـــــــــامر
ثـــــــم أزرى بـــــــه النـــــــوى
ورمتـــــــــــه المقـــــــــــادر
وأحاطـــــــــــت بحســـــــــــنه
بعـــــــــــد ذاك المقاصـــــــــــر

فـــــرحُ التـــــاجر بـــــالطير كبيـــــر
وكـــــذا الجفـــــن بلقيـــــاه قريـــــر
كلمـــا غنـــى انتشـــى القلـــب ســـرورا
وتغشـــــاه مـــــن الســـــعد بشـــــير
صـــــار يهـــــواه وأدنـــــاه خلـــــيلاً
مـــا لـــه فـــي قلبـــه الصـــب نظيـــر
لـــو تمنـــى يُحضِـــر الغـــالي لديـــه
أيُّ شـــيء رامـــه الطيـــر يصـــير
والـــــذي يرجـــــوه لا درب إليـــــه
غيـــر مـــا فيـــه لمضـــناه ســـعير
لـــيس يرجـــو الطيـــر إلا عـــود أمـــسٍ
كـــان فيـــه بربـــى المغنـــى يطيـــر
إنـــه المعشـــوق فـــي الأســـر ولكـــن
قصـــده الإطـــلاق والقصـــد أثيـــر

ورأى فـــي نفســـه رأيـــاً عجيبـــاً
قـــال والـــدمع بعينيـــه غزيـــر
لـــو تفـــانى ذلـــك التـــاجر عشـــقاً
لـــيس يرضـــى أننـــي اليـــوم الأســـير
ورآه لـــيس يهـــوى غيـــر حـــظٍّ
راق للـــنفس بـــه ذاك العشـــير

كيـــف يُرجـــى إطلاقـــه والخـــلاص
وهـــو قـــد حـــدّقت بـــه الأقفـــاص
يـــذكر المـــوطن الحبيـــب ويشـــدو
ويغنـــي المغنـــى ولـــيس منـــاص
كلمـــا زاد لوعـــة وحنينـــاً
فـــي الأغاريـــد يَطـــربُ الأشـــخاص
قلبـــه تقطـــر المـــرارة منـــه
وطـــروب إزاءه رقّـــاص

أنســـامُ الغابـــة فـــي الهنـــد
فاحـــت بالطيـــب وبالنَـــدِّ
لعبـــت بفـــؤاد مشـــتاقٍ
ملســـوع فـــي نـــار الفقـــدِ
الجســـم نـــأى عنهـــا لكـــن
فـــي مهجتـــه قـــربُ العهـــدِ
هـــل تســـعد عينـــاه يومـــاً
بمحاســـنها بَعـــد البعـــد
ســـبحت بالطـــائر ذكـــراه
والـــذكرى مـــا كانـــت تجـــدي

حتـــــى وافـــــاه التـــــاجر فـــــي
أمـــــرٍ قـــــد يـــــأتي بالســـــعد
الرحـــــل يُشـــــد إلـــــى مغنـــــى
أحبـــــاب الطـــــائر فـــــي الهنـــــد
والتـــــاجر يســـــأل طـــــائره
عـــــن حاجتـــــه عنـــــد العَـــــوْد
آتيـــــك بمـــــا تهـــــوى فارغـــــب
مـــــن أرض الهنـــــد أو الســـــند
مـــــا كنـــــت عـــــن المحبـــــوب أرى
منعـــــي إلا عـــــينَ الجَحـــــد
قـــــال الطيـــــر المأســـــور : أمـــــا
واللهِ الجبـــــــــار الفـــــــــردِ
مـــــا أرجـــــو إلا أن تلقـــــى
خلانـــــي فـــــي أرض الـــــورد
قـــــل للأحبـــــاب ســـــلاماً يـــــا
إخـــــوان الخُلّـــــة والـــــودِّ
حيّـــــا الوهـــــاب مـــــرابعكم
ورعـــــاكم فـــــي العـــــيش الرغْـــــدِ
وحمـــــى تغريـــــداً بسّـــــاماً
فـــــيكم مـــــن أطـــــواق القيـــــد
قـــــل يـــــا أصـــــحابي مأســـــورٌ
مـــــنكم يـــــذوي خلـــــف الســـــدِّ
أضـــــناه البعـــــد وأحرقـــــه
شـــــوقُ الظمـــــآن إلـــــى الـــــوردِ

سـافر التـاجر يبغـي مكسـبا
ويُرَجّـي فـي مـآلٍ ذهبـا
فقضـى بعـد عنـاء إربـه
وجنـى كسـباً كثيـراً طيّبـا
وإلـى الغابـة ولّـى وجهـه
ليجيـب الطيـر فيمـا طلبـا
يـا لـه مـن مـوطِنٍ مُسْتحسَـن
طـاب أرضـاً وحـلا منقلبـا
ورأى الأطيـار فـي فرحتهـا
بـين أفنـانٍ ومـاءٍ عَـذُبا
قـال مـنْ صـاحِبكمْ جئـتكمُ
بسـلامٍ وعتـابٍ ونبـا
هـو بالأقفـاص عنـدي قـاطنٌ
هـانئَ العـيش يغنـي طَرَبـا
قـال إن الشـوق قـد برّحـه
حَمّلـوني نصـحكم يـا نُجَبـا
صـاح مـنهم طـائر عـن ألـمٍ
وارتمـى أرضـاً كمـاءٍ سُـكِبا
وغـدا دونَ حَـرَاكٍ جسـمُهُ
صـار فـي القـاع كطـينٍ لَزَبـا
أذهـلَ التـاجرَ مـا شـاهدَهُ
وتـأذى قلبـه واضـطربا
قـال : هـل أحكـي لخِلّـي قصـتي
وأوافـي بالأسـى مغتربـا
وانثنـى نحـو المغـاني قـائلاً

يـــا صِـــحابي قـــد لقينـــا نصـــبا

التـــــاجر قـــــد خـــــتم الســـــفرا
والطـــــائر ينتظـــــر الخبـــــرا
حيـــــاه بصـــــوت محـــــزون
وأتـــــى بالقصـــــة معتـــــذرا
مـــــا كـــــاد الطـــــائر يســـــمعها
منـــــه حتـــــى شـــــخَصَ البَصـــــرا
وغـــدا مـــن غيـــر حَـــراك مـــا
تلقـــــى لنضـــــارته أثـــــرا
والتـــــاجر صـــــاح أيـــــا لهفـــــي
مـــن مـــوتٍ فـــي المســـكين جـــرى

سأصـــنع قبـــراً للحبيـــب المـــودَّع
وأسكب فوق الترب من حرِّ أدمعي
كـــذا قـــال والمفتـــاح يدنيـــه كفـــه
إلـــى قفـــص الطيـــر الثمـــين المرصَّـــع
وأخرجـــه مـــن ذلـــك المحـــبس الـــذي
قضـــى زمنـــاً فيـــه بقلـــبٍ مُصَـــدَّعِ
ولمـــا رمـــاه فـــوق مبســـوط كفـــه
وأعتقـــه مـــن قهـــر أســـرٍ مُـــرَوِّع
غـــدا طـــائراً فـــي الجـــو يخفـــق فرحـــةً
جناحـــاه غرّيـــداً بلحـــن مُسَـــجَّع
وعـــاد إلـــى غصـــنٍ قريـــبٍ مخاطبـــاً
صـــديقاً علتـــه دهشـــة المتخشـــع

يـــــا صـــــاحباً قيـــــدني لنفســـــه
ومُكرمـــــاً أزعجنـــــي بحبســـــه
خيـــــرُ مكـــــان للفتـــــى موطنـــــه
وكـــــلُّ جـــــنسٍ آنـــــسٌ بجنســـــه
قـد جئـتَ مـن أرض الصـحاب بالـدوا
لحـــــائرٍ فـــــي أســـــره وبؤســـــه
قيـــــدني حُســـــني وقـــــد أطلقنـــــي
فنـــــاؤه وقربـــــه مـــــن رَمســـــه
فهَـــــنٍّ مَـــــن فـــــارقَ ليـــــل جهلـــــه
لمـــــا بـــــدا لـــــه صـــــباحُ شمســـــه
طـــــوبى لمـــــن يفهـــــم ســـــر ذاتـــــه
وينطـــــوي عنـــــه حجـــــاب حســـــه

د. محمود أبو الهدى الحسيني